JOURNAL of SOCIAL and HUMANITIES SCIENCES RESEARCH (JSHSR)
Uluslararası Sosyal ve Beşeri Bilimler Araştırma Dergisi

Received/Makale Geliş 21.10.2022
Published /Yayınlanma 30.11.2022
Article Type/Makale Türü Research Article

Citation/Alıntı: حيانى ,م. (2022). الدَّوافع من منظور إسلامى وتزكيتها فى ضوء السُّنة الشريفة. *Journal of Social and Humanities Sciences Research, 9*(89), 2372-2385. http://dx.doi.org/10.26450/jshsr.3353

محمد حياني
https://orcid.org/0000-0002-5916-7716
تركيا, جامعة كربوك, معهد العلوم الإسلامية الأساسية, قسم العلوم الإسلامية الأساسية.

الدَّوافع من منظور إسلامي وتزكيتها في ضوء السُّنة الشريفة

ملخص البحث

لقد تضمنت الدراسة مقدمةً وتمهيداً وأربعة مباحث, ثم الخاتمة.
مقدمة: تُبرز أهمية دراسة دوافع السلوك من منظور إسلامي, وبيان أنواعها الرئيسية (دوافع جسدية- دوافع روحية - دوافع نفسية).
التمهيد: وفيه تعريف بمصطلحات الدراسة (الدوافع- الغرائز- السلوك- التزكية) والعلاقة بينها في علم النفس الحديث.
المبحث الأول: الدوافع من منظور إسلامي
المبحث الثاني: انحراف الدوافع من الإيجابية للسلبية ومبادئ تزكيتها
المبحث الثالث: كبت الدوافع يسبب الانفعال والاضطراب في التفكير
المبحث الرابع: تزكية الدوافع بتوجيهها الإيجابي المتوازن
الخاتمة: وفيها بيان لأهم النتائج والتوصيات
وخلص البحث إلى عدة نتائج من أهمها أن التصور الإسلامي للسلوك قائم على أساس تزكية الدوافع السلوكية, وتغليب العقل الإيماني على الشهوة وذلك من خلال مبادئ ثلاثة: الإشباع بطريق مباح- واختيار الوقت المناسب- والتوازن في الإشباع من غير إسراف ولا تقتير.
.الكلمات المفتاحية: الدوافع, الغرائز, الدوافع في السُنَّة, تزكية الدوافع.

ABSTRACT

MOTIVES FROM AN ISLAMIC PERSPECTIVE AND REFINING IT (IN LIGHT OF THE HONORABLE SUNNAH)

The study included an introduction, a preface, four topics, and a conclusion. The introduction highlights the importance of studying the motives of behavior from an Islamic perspective and showing their main types (physical motives - spiritual motives - psychological motives).
The preamble: Which includes a definition of the terminology of studying (motives - instincts - behavior - refinement) and the relationship between them in modern psychology.
The first topic: talks about the motives from an Islamic perspective.
The second topic: explains the deviation of motives from positive to negative, and the principles of their refinement.
The third topic: shows that suppressing motives causes anxiety and disturbance in thinking.
The fourth topic: refines the motives with their positive and balanced direction.
The conclusion: contains a statement of the most important findings and recommendations
The research concluded with several results, the most important of which is that the Islamic perception of behavior is based on refining behavioral motives, and giving priority to the faith-based mind over lust, through three principles: gratification in a permissible way, choosing the right time, and the balance in gratification without extravagance or frugality.
Keywords: motives, instincts, motives in The Sunnah, refining motives.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين, صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين, أما بعد:

فإن دراسة دوافع السلوك الإنساني تعتبر من أهم موضوعات علم النفس الحديث وأكثرها دراسة وعناية, إذ لا مجال لفهم سلوك الإنسان وتفسيره والقدرة على تعديله وتغييره إلا من خلال دراسة الدوافع التي تحركه, ولا يمكن لهذه الدوافع أن توجه السلوك نحو إشباعها إلا من خلال التفكير للبحث عن طُرق الإشباع, وبالتالي فإن دراسة الدوافع وتنظيمها لها أهمية في بناءالتفكير وتوجيه الفرد نحو السلوك الإيجابي.

فللإنسان حاجات كثيرة, منها ما هو أساسي وبانعدامها تتوقف الحياة, ومنها ما هو ضروري أيضاً لتحقيق الأمن النفسي والسعادة. وسُمِّيت دوافع لأنها تدفع الإنسان للقيام بنشاط سلوكي لإشباع حاجاته.

ولا شك أننا بحاجة إلى إعادة النظر في الدراسات المتعلقة بعلم النفس الحديث, والتي نشأت في بلاد الغرب, لنصحح المفاهيم بما يتوافق مع المنظور الإسلامي, فهذه العلوم نستطيع أن نؤصل لها من خلال الكتاب والسنة, حيث نجد فيهما من الأدلة ما يكفينا لرسم منهج متوازن لإشباع هذه الغرائز دون إفراط أو تفريط, فليس المطلوب هو كبت هذه الغرائز ومحوها, كما أنه ليس من المطلوب إشباع طغيانها دون حدود, فكلاهما طرفي نقيض, ومن هنا تأتي أهمية التأصيل الإسلامي لهذه المواضيع.

ويمكن تقسيم هذه الدوافع إلى ثلاثة أقسام: دوافع جسدية- دوافع روحية - دوافع نفسية.

أولاً: الدوافع الجسدية

وهي حاجات أساسية لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها, لأنها سبب استمرار الحياة, وتنبعث عن هذه الحاجات دوافع تدفع الإنسان للحصول على ما يشبع حاجاته حتى يعود التوازن للجسم, فالدوافع هي فطرية غريزية ناشئة عن خلل عضوي يرافقه توتر داخلي يدفع الإنسان لخفضه من خلال القيام بسلوكيات تهدف إلى إشباع الحاجة. وهي نوعان: دوافع لحفظ الذات, ودوافع لحفظ النوع.

أما دوافع حفظ الذات: كدافع الجوع والعطش والإخراج, والتنفس والتعب, والحرارة والبرودة ... وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان. فدافع الجوع يدفع الإنسان للتفكير والبحث عن الطعام ودافع العطش يدفعه للبحث عن الشراب وشعوره بالتعب والحرارة والبرودة يدفعه للبحث عن مسكن يرتاح فيه ويقيه من تقلبات الجو ويحفظه من أذى الأعداء والوحوش, وكذلك البحث عن ثياب تواري عورته وتدفع عنه حرَّ الصيف وبرد الشتاء, كما أنه بحاجة إلى نار يستدفئ بها من البرد القارص ويطهي بها طعامه.

وأما دافع حفظ النوع: فكما أن الله تعالى أوجد في الإنسان دوافع فطرية لحفظ الذات واستمرار العيش, فكذلك أوجد فيه دافع التناسل والتكاثر الذي يضمن بقاء جنس الإنسان. وهو مايسمى في علم النفس بالدافع الجنسي.

ومُهمة هذا الدافع في الإسلام ليس فقط حفظ النوع كما هو عند الحيوان, بل كذلك حفظ الأنساب عند التناسل والتكاثر, لذلك حرَّم نكاح المحارم, بالنسب أوبسبب الرضاع والمصاهرة, وحرَّم الزنا ونكاح الكافر للمسلمة ونكاح المتعة وغير ذلك من الفواحش.

ثانياً: الدوافع الروحية

وإلى جانب الحاجات البدنية الفسيولوجية التي تتعلق بحفظ الذات وبقاء النوع, يوجد حاجات من نوع آخر, وهي حاجات روحية غير عضوية، مثل دافع التدين, والتمسك بالتقوى وحب الخير والعدل, وكراهية الشر والباطل والظلم, وقد أغفل معظم علماء النفس الغربيون هذا النوع من الدوافع, رغم أنها أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان.[1]

ثالثاً:الدوافع النفسية

الدوافع النفسية (كدافع التملك والعدوان وحب النفس...) ويُطلِق عليها علماء النفس اسم الدوافع النفسية الإجتماعية, لأنها تُشبع الحاجات النفسية للفرد كما أنها تَظهر أثناء التنشئة الاجتماعية ونتيجة لتفاعل الشخص مع المجتمع الذي يعيش فيه. ويذهب معظم علماء النفس المحدثين إلى أن الدوافع النفسية هي في الأغلب مكتسبة على أساس دوافعنا الفسيولوجية, أي أنها متفرعة أو مشتقة عنها.[2]

التمهيد: التعريف بمصطلحات البحث: (الدوافع- الغرائز- السلوك- التزكية)

أولاً: التعريف اللغوي

الدوافع: قال ابن منظور نقلا عن ابن شُمَيْل: الدَّوافِعُ أَسافِلُ المِيثِ حَيْثُ تَدْفَع فِي الأَوْدِية، أَسفلُ كُلّ مَيْثاء دَافِعَةٌ. وَقَالَ الأَصمعي: الدَّوافِعُ مَدافِعُ الْمَاءِ إِلى المِيثِ، والمِيث تَدْفَع إِلى الوادِي الأَعظم. والدافِعةُ: التَّلْعَةُ مِنْ مَسايِل الْمَاءِ تَدْفَع فِي تَلْعة أُخرى إِذا جَرَى فِي صَبَبٍ وحَدُورٍ مِنْ حَدَبٍ, فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ دافِعةٌ وَالْجَمْعُ الدَّوافِعُ. وَقِيلَ: المَدافِعُ المَجارِي والمَسايِل, والمُدافَعة: المُزاحمة.[3] ويتبين من خلال التعريف اللغوي للفظ أنه يدل على الحركة والدفع بقوة.

الغرائز: الْغَرِيزَةُ: "بِوَزْنِ الْغَرِيبَةِ وهي الطَّبِيعَةُ وَالْقَرِيحَةُ والسَّجِيَّة مِنْ خَيْرٍ أَو شَرّ؛ وَقَالَ اللِّحْيَانِيُّ: هِيَ الأَصل وَالطَّبِيعَةُ."[4]

---

[1] نجاتي, محمد عثمان, ***القرآن وعلم النفس***, دار الشروق, القاهرة, ط7, 1421, 2001م . ص 42.

[2] نجاتي, ***القرآن وعلم النفس***, ص 41 -42.

[3] ابن منظور, : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ), ***لسان العرب***, دار صادر- بيروت, ط3, 1414 ه, عدد الأجزاء: 15. 88/8.

[4] الرازي, زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ), ***مختار الصحاح***, تح: يوسف الشيخ محمد, المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا, ط:5, 1420, هـ - 1999م, عدد الأجزاء: 1. ص 226.
ابن منظور, ***لسان العرب*** , 387/5.

وقال ابن دريد:" والغريزة: الطبيعة، وَالْجمع غرائز, فلَان كريم الغريزة والطبيعة والنحيتة والنحيرة والخليقة والسليقة، كل ذَلِك وَاحِد".[5]

السلوك: (السَّلْكُ) بِالْفَتْحِ مَصْدَرُ (سَلَكَ) الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ (فَانْسَلَكَ) أَيْ أَدْخَلَهُ فِيهِ فَدَخَلَ[6]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.[7] قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: أدخلنا الشرك والتكذيب.[8] واللَّهُ يُسْلِكُ الكَفَّارَ فِي جَهَنَّمَ, أَيْ يُدْخِلُهُمْ فِيهَا, والمَسْلَكُ: الطَّرِيقُ.[9]

ويرد السلوك بمعنى الإستقامة, جاء في القاموس المحيط: وأسْلَكَها: أدْخَلَها فيه. والسِّلْكَةُ، بالكسر: الخَيْطُ يُخاطُ به، والسُّلْكَى، بالضمّ: الطَّعْنَةُ المُسْتَقِيمَةُ، والأَمْرُ المُسْتَقِيمُ.[10]

التزكية: التزكية لغة: مأخوذة من زَكَا يَزْكو زَكاء وزُكُوّاً, أي نما وطهر, فالتزكية بمعنى النماء والطهارة والبركة.[11]

ومنه الزَّكاةُ: لما يُخرج الإنسان من حقّ الله تعالى في ماله إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة في المال، أو لتزكية النّفس، أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعا، فإنّ الخيرين موجودان فيها.[12]

ثانياً: التعريف الاصطلاحي

الدوافع اصطلاحا: هناك تعاريف كثيرة للدافع, وهي متفقة من حيث المضمون, وهذه أهمها:

يعرف نجاتي الدوافع بأنها:" القوى المحركة التي تبعث النشاط في الكائن الحي وتُبدي السلوك وتوجهه نحو هدف أو أهداف معينة".[13]

ويعرفها أحمد زكي صالح:" الدوافع أو الحافز هو أي عمل داخلي في الكائن يدفعه إلى عمل معين، والاستمرار في هذا العمل مدة معينة من الزمن حتى يشبع هذا الدافع".[14]

وتُعرَّف الدوافع بأنها تلك القوى المحركة والتي تبعث النشاط في الإنسان وتبدي السلوك, وتوجهه نحو هدف أو أهداف معينة.[15] فقد يطلق على الدافع لفظ (الباعث).

ويعرفه حامد زهران بأنه: حالة جسمية أو نفسية داخلية (تكوين فرضي) يؤدي إلى توجيه الكائن الحي تجاه أهداف معينة ومن شأنه أن يقوي استجابات محددة من بين عدة استجابات يمكن أن تقابل مثيراً محددا.[16]

ويبين الدكتور طه العلاقة بين الحاجة والدافع, فالحاجة يقصد بها أنه عندما ينشط دافع ما لدى الفرد فإن هذا الدافع يجعله يحس بأن شيئاً ما ينقصه, وأنه بحاجة إلى شيء يشبع هذا الدافع.

فمثلا عندما ينشط دافع الجوع فإن الإنسان يحس بحاجة إلى الطعام, وكذلك الشراب وسائر الدوافع, فالحاجة مرتبطة بالدوافع, يسعى الإنسان لإشباعها ليحافظ على نفسه ونوعه, مما يحقق المصلحة له ولمجتمعه.[17]

فالدافع فهو طاقة داخل الكائن الحي إنسانا كان أو حيوانا, تدفعه هذه الطاقة إلى القيام بسلوك معين أو نشاط معين تحقيقا لهدف معين هو إشباع هذا الدافع.[18]

أقول: من خلال هذه التعاريف يتبين لنا أن الدافع هو طاقة كامنة وقوة محركة للسلوك, تدفعه نحو تحقيق هدف معين.

الغرائز اصطلاحا:

عبَّر الجاحظ عن معنى الغرائز بقوله: " وللإنسان قوى معروفة المقدار، وشهوات مصروفة في وجوه حاجات النفوس، مقسومة عليها. لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها. وباب المنكح من أكبرها، وأقواها، وأعمّها".[19]

فالغريزة في اللغة تدل على الصفات أو الاستعدادات النفسية أو الحركية، أو السلوكية مغروزة في أصل بنية الكائن الحي حتى إنه يمارسها بالفطرة التي أودعها الله فيه، من غير حاجة إلى تعلم.[20]

وقد عرفها أحمد زكي صالح فقال: " الغريزة مظهر نفسي ثلاثي البعد بمعنى أنه يوجد لها أبعاد ثلاثة، إدراك يثيرها، ونشاط انفعالي يصاحبها، وسلوك تعبيرية عن نفسها".[21]

---

[5] ابن دريد, أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ), ***جمهرة اللغة***, تح: رمزي منير بعلبكي, دار العلم للملايين – بيروت, ط:1, 1987م. 706/2.
[6] الرازي, ***مختار الصحاح***, ص 152.
[7] سورة الشعراء: 200.
[8] البغوي, محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ), ***معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي***, حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش, دار طيبة للنشر والتوزيع, ط: 4، 1417 هـ - 1997 م, عدد الأجزاء: 8. 129/6.
[9] ابن منظور, ***لسان العرب***, 443/10.
[10] ابن منظور, ***القاموس المحيط***, 943/1.
[11] ابن منظور, ***لسان العرب***, 358/14.
[12] الراغب الأصفهاني, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ), ***المفردات في غريب القرآن***, تح: صفوان عدنان الداودي, دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت, ط:1, 1412 هـ. ص381.
[13] نجاتي، ***القرآن وعلم النفس*** ، ص27.
[14] صالح, أحمد زكي صالح، ***علم النفس التربوي***، دار المعارف، مصر, ط14، 1988م,ط14، ص314.
[15] نجاتي, ***القرآن وعلم النفس***, ص27.
[16] زهران, حامد زهران, ***الصحة النفسية والعلاج النفسي***, عالم الكتب, القاهرة, ط4, 1426-2005 م. ص 127.
[17] طه, فرج عبد القادر, ***موسوعة علم النفس والتحليل النفسي***, دارغريب,ط2, 2003م. ص 313.
[18] المرجع السابق, ص 349.
[19] الجاحظ,عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ), ***الحيوان***, دار الكتب العلمية – بيروت, ط:2, 1424ه,عدد الأجزاء: 7. 73/1.
[20] عبدالرحمن النحلاوي، ***الغرائز والدوافع تنظيمها وتأثيرها في الحياة النفسية***، محاضرات الموسم الثقافي العاشر للكليات والمعاهد العلمية.
[21] صالح، ***علم النفس التربوي***،ص798.

وعرف محمد أحمد جاد المولى الغرائز بأنها: " قوة فطرية أودعها الله جسم الإنسان مقسومة بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على بقائه وبقاء سلالته فهي نزعات الفطرة".[22]

وخلص عبد الرحمن عبدالله إلى أن مفهوم الغرائز عند العلماء الشرعيين واللغويين وعند العلماء المهتمين بالدراسات النفسية, هو: "مجموعة الطبائع والبواعث والأخلاق المترسخة في النفس الإنسانية الذي يدفعها إلى نشاط سلوكي عقلي وحركي تتبين إيجابيته من سلبيته حسب صلاح النفس واستقامتها وضبطها تجاه الدوافع المثيرة للسلوك البشري ... وهي قابلة للتوجيه الإيجابي كما هي قابلة للانحراف السلبي عن منهج الفطرة في الأصل".[23]

السلوك اصطلاحا :

يقوم السلوك بمقام مترجم لسان حال الشخصية, فيُعبّر عن مكنوناتها ويكشف عن خباياها وينطق بأسرارها, كما أن السلوك هو الذي يجسّد المشاعر والأحاسيس والغرائز والعواطف الداخلية ويحوّلها إلى المحسوس, لذلك كان السلوك المستقيم والمتوازن عنوانا للشخصية السوية.

إن سلوك الإنسان هو سلوك مدفوع فليس من عمل إلا ومن ورائه دوافع. فالدوافع والحاجات تبعث على عقد النيات, والنية هي بداية السلوك, لذلك كانت النية مرتبطة بالعمل, وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ".[24]

التزكية اصطلاحا:

ذكر الله تعالى التزكية للنفس وضدها في قوله سبحانه:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا* وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.[25] فالتزكية التي تمثل الجانب الإيجابي يقابلها التدسية السلبية, والمعنى قد أفلح من أظهرها وأعلاها بطاعة الله تعالى، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغّرها بمعصية الله. وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾.[26] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها.[27] ويجعل نفسه ذليلة حقيرة خسيسة, أما صانع الخير والمعروف فقد أشهر نفسه ورفعها.

وقد وردت التزكية في القرآن الكريم في عدة مواضع بمعان متعددة منها:

1- وردت التزكية بنسبتها إلى الله تعالى في قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۡۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾.[28] بمعنى يطهر ويبرّئ من الذنوب ويُصلح.[29] فقد نهت الآية الإنسان عن تزكية نفسه تفاخراً وادعاء التقوى والصلاح.

2- ونُسبت التزكية للنبي ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾.[30] أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.[31]

3- ونُسبت التزكية للعبد في قوله سبحانه: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَنۡ زَكَّىٰهَا ﴾.[32] أي نفسه. والمقصود في هذا البحث إنما هو المعنى الثالث بأن يزكي الإنسان نفسه فيُطهّرها من أدرانها حتى يرتقي بها إلى مرتبة الإحسان, هذه المرتبة التي عرَّفها النبي ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ".[33]

ثالثاً: العلاقة بين الدوافع والغرائز والسلوك في علم النفس الحديث

استعمل علماء النفس الحديث مصطلح الغرائز و الدوافع بمعنى واحد, وقد أكّد هذا المعنى العالم (ماكدوجل) عندما ذهب إلى أن الغرائز: هي الدوافع الأساسية للسلوك البشري, فيعرفها بأنها استعداد فطري نفسي جسمي يدفع الفرد إلى أشياء من نوع معين، ويشعر الإنسان إزاءها بانفعال خاص، ثم يسلك نحوها سلوكاً معيناً أو يحاول ذلك على الأقل، والغرائز عامة يشترك فيها الناس جميعاً، في كل سلالة وفي كل حضارة وفي كل عصر، وهي دوافع فطرية لا تُكتسب ولا يمكن استئصالها أو القضاء عليها.[34]

وأما فرويد فقد حاول تفسير سلوك الإنسان عن طريق غريزتين أساسيتين هما: غريزة الحياة, ويمثلها مبدأ اللذة. وغريزة الموت, ويمثلها مبدأ العدوان، إلا أن علماء آخرين افترضوا وجود عدد أكبر من الغرائز من تلك التي أشار إليها (فرويد) و(ماكدوجل) وقد بلغ عدد الغرائز عندهم المئات بل الآلاف, وهذا ما سبب إضعاف وجهة النظر الغرائزية فيما بعد، وبسبب المصاعب المتعددة التي واجهتها نظرية الغرائز في تفسير السلوك الإنساني, تم استبدال تعبير الغريزة بمفهوم جديد,ألا وهو الدافع والحاجة.[35]

---

[22] محمد أحمد جاد المولى، ***الخلق الكامل***، مصر, مطبعة حجازي, ط: بلا. 34/1.

[23] الزيد, عبد الرحمن, ***الهدي الإسلامي للغرائز عند الإنسان***, جامعة أم القرى, مكة المكرمة, 1417ه. ص 4-5.

[24] البخاري, محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (المتوفى:256هـ), ***الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري***, تح: محمد زهير بن ناصر الناصر, دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1, 1422هـ. عدد الأجزاء: 9. 1 كتاب بدء الوحي, باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟, 6/1ح1.

مسلم, مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ), ***المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ***, تح: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط:1, 1412هـ-1991م. 33 كتاب الإمارة, بَابُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ ". 3/1515ح 1907.

[25] سورة الشمس: 9-10.

[26] سورة النحل: 59.

[27] ابن القيم, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ), ***الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء***, دار المعرفة – المغرب، ط: بلا, 1418هـ - 1997م, عدد الأجزاء: 1. ص 78.

[28] سورةالنساء: ٤٩.

[29] البغوي, محيي السنة, أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ), ***معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي***, حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش, دار طيبة للنشر والتوزيع, ط: 4، 1417 هـ - 1997 م, عدد الأجزاء: 8. 185/1.

[30] سورة البقرة: 151.

[31] ابن كثير, أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ), ***تفسير القرآن العظيم***, تح: محمد حسين شمس الدين, دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت, ط: 1, 1419 هـ . 335/1.

[32] سورة الشمس:9.

[33] مسلم, ***المسند الصحيح***, إكتاب الإيمان, بَابٌ الْإِيمَانُ مَا هُوَ وَبَيَانُ خِصَالِهِ, 39/1/ح 9.

[34] راجح, أحمد عزت, ***أصول علم النفس***, دار الكتاب العربي للطباعة والنشر, القاهرة, ط: 7, 1968م. ص 85.

[35] عدس, وآخرون، ***أسس علم النفس التربوي***, ص 259-260 .

ويرى البعض أن هناك سبباً لهذا الاستبدال, وهو أن الغريزة اصطلاح مبهم ويحمل أكثر من معنى مما يدعو إلى الارتباك، وقد كان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى اختفائه من كتب علم النفس الحديث.[36]

وقد عَدَل علماء النفس عن مصطلح الغرائز ورفضوه واستبدلوه بلفظ (الدوافع) وذلك في العشرينات من هذا القرن.[37]

فالدافع هو اصطلاح عام وشامل يحتوي على ألفاظ كثيرة كالحافز والباعث والرغبة والميل والحاجة والنزعة والعاطفة والغرض والقصد والنية والغاية والإرادة.[38]

المبحث الأول: الدوافع من منظور إسلامي

يُطلق على الدافع في المصادر الإسلامية لفظ: الفطرة, والشهوة, كما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة, وعبَّر عنها العلماء بألفاظ مرادفة كاللذات والدواعي والجِبِلَّة والغريزة, ويطلق على التحريض والوازع والترغيب والترهيب كما في القرآن الكريم.[39]

والغريزة من المصطلحات ذات العلاقة بالدافع وهي الميل الفطري الذي يدفع الإنسان إلى العمل في اتجاه معين وتحت ضغط حاجته الحيوية, فالغرائز هي الحركة الأولى لكل نشاط حركي أو عقلي, أما الدافع فهو كل ما يدفع السلوك ذهنيا كان هذا السلوك أو حركيا, ويمكن القول بأن الغرائز هي مجموعة الطباع والسجايا والبواعث المترسخة في النفس الإنسانية, والذي يدفعها إلى نشاط سلوكي عقلي وحركي تتبين إيجابيته وسلبيته حسب صلاح النفس واستقامتها وضبطها تجاه الدوافع المثيرة للسلوك البشري. فالغرائز قابلة للتوجيه الإيجابي كما هي قابلة للانحراف السلبي عن منهج الفطرة.[40]

غير أن مصطلح غريزة هو السائد في كتب علماء المسلمين المتأخرين كالإمام الغزالي، حيث يقول: " الجبلات مختلفة، بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان: أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة ...".[41] وقد ذهب بعض الباحثين الإسلاميين إلى تصنيف دوافع السلوك الإنساني بما يتوافق مع المقاصد الخمس للشريعة الاسلامية وهي:

1- الحفاظ على الدين

2- الحفاظ على النفس

3- الحفاظ على العقل

4- الحفاظ على المال

5- الحفاظ على النسل

ومن خلال هذا التصنيف نرى أن الاسلام ينظر للإنسان على أنه مكون من روح وجسد, وأول هذه الدوافع من حيث الأهمية هو الدافع الديني والحفاظ عليه, ولا شك أن هذه الدوافع مترابطة ومتكاملة فيما بينها, وهي هامة في توازن حياة الإنسان, وتختل حياة الإنسان وتظهر مشكلاته بمقدار إخلاله بهذه الدوافع نوعا وكما وترتيبا.[42]

ويعتبر الدافع الديني هو أهم هذه الضروريات الخمس لأنه ضرورة فطرية ونفسية واجتماعية, فهو يشبع الروح, ويحقق الاستقرار والصحة النفسية, وكون الدين ضرورة اجتماعية لاحتوائه على المنهج الذي يحقق الانسجام والتوافق بين الإنسان ومفردات المحيط الذي يعيش فيه.

والفرد يحتاج للدين كبيان للغاية من وجوده والسبيل الذي يسلكه لتحقيق هذه الغاية ويضع الأحكام والقوانين لإيجاده, ولو عُدم الدين لا نعدم المنهج الحكيم الذي يكفل للإنسان حفظ ذاته واستمرار تناسله, مع سعادته ورعايته.

فبالدين يتم رسم المنهج الذي يضمن حفظ باقي الضروريات الخمس, وبالمقابل فإن فقده سيؤدي لا محالة إلى الخلل في الحفاظ على باقي الضروريات الخمس, لذلك كان هو الأساس بينها والحافظ لها.

ونجد أن الإمام الغزالي قد قرر بعض القواعد التي تتعلق بالدوافع وأهمها:

1- الإنسان يولد مزوداً بدوافع وميول, حيث قال: " الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا".[43] ويقول: " فاضطررتَ إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك, يسمى شهوة ".[44]

2- الدوافع والميول هي التي تجعل الإنسان يفكر ويبحث عن أسباب إشباعها وإروائها بالطريق السليم, وبالتالي هناك ارتباط بين الدوافع والتفكير: " والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة ... ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حُكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق".[45]

---

[36] راجح، ***أصول علم النفس***, ، ص89.

[37] عدس, عبدالرحمن- توق, محي الدين, قطامي, يوسف, ***أسس علم النفس التربوي***, دار الفكر للطباعة والنشر, ط: 3, 1424 ه- 2003م. ص260.

[38] راجح, ***أصول علم النفس***, ص111.

[39] النغيمشي, عبد العزيز, ***علم النفس الدعوي***, دار المسلم للنشر والتوزيع, الرياض, ط: بلا, 1415ه. ص68.

[40] الزيد, عبد الرحمن, ***الهدي الإسلامي للغرائز عند الإنسان***, جامعة أم القرى, مكة المكرمة, 1417ه. ص114-115.

[41] العراقي, أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806هـ), ***المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار*** (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين), دار ابن حزم، بيروت – لبنان, ط: 1، 1426 هـ - 2005 م,عدد الأجزاء: 1. 56/3.

[42] الغنيمشي, ***علم النفس الدعوي***, ص 69- 72.

[43] الغزالي, ***إحياء علوم الدين***, 10/4.

[44] المرجع السابق, 111/4.

[45] المرجع السابق, 8/3.

3- الدوافع هي التي تحرك الأعضاء نحو القيام بسلوك, فيقول: " اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلاً, فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه ...".[46]

المبحث الثاني: انحراف الدوافع من الإيجابية للسلبية ومبادئ تزكيتها

اقتضت مشيئة الله تعالى إيجاد دوافع فطرية في الإنسان, وهي دوافع إيجابية من حيث المبدأ, منها دوافع فسيولوجية تدفعه للقيام بأنشطة لإشباع الحاجات الأساسية لحفظ الذات وبقاء النوع, ومنها دوافع روحية نفسية لتحقيق الغذاء الروحي والتوافق النفسي, حتى يعيش الإنسان سعيداً مطمئناً, غير أن التنشئة الإجتماعية والعوامل والظروف التي يتعرض لها الإنسان أثناء حياته تؤثر في نموه الفكري والنفسي, و ينتج عن ذلك أثر سلوكي, فقد يتعلم أساليب وطرق صحيحة وسليمة في إشباع دوافعه, وبالمقابل قد يتعلم أساليب شاذة, فإذا لم تخضع دوافع الإنسان منذ صغره للتهذيب والتوجيه, انحرفت عن اتجاهها الطبيعي نحو السلبية.

فالدوافع البدنية الفطرية مثلا, تهدف أساسا إلى إشباع الحاجات الضرورية لحفظ الذات وبقاء النوع, ولكن هذه الدوافع عندما تنحرف عن مسراها الصحيح يصبح هدفها تحقيق اللذة والمتعة الجسدية, أي يصبح الدافع غاية في ذاته وليس وسيلة لحفظ الذات والنوع.

ومثال ذلك: الطعام قد يصبح عند بعض الناس غاية في ذاته لتحقيق المُتعة واللذة, فيكثرون منه زيادة عما يحتاجونه, فيؤدي الإكثار من الطعام إلى التخمة والسمنة وكثير من الأمراض, فبدلاً من أن يكون دافع الطعام وسيلة للحفاظ على صحة البدن, ينحرف هذا الدافع ليكون سببا في العلل والأوجاع.

وكذلك دافع الشراب, عندما يتعاطى الإنسان المشروبات المحرمة كالخمور والمخدرات, وتكون الغاية هي المتعة الحاصة بهذا الشراب, فإن دافع الشراب يكون قد انحرف عن الحكمة التي أرادها الله تعالى, وهي حفظ الذات, ويكون قد ألحق الضرر والأذى بالذات.

وكذلك دافع الجنس, عندما تكون الغاية منه تحقيق اللذة فحسب دون ضوابط وقيود, فإن الإنسان قد يرتكب الفواحش, ويكون قد انحرف عن الحكمة الأساسية من إيداع هذه الغريزة فيه, وهي حفظ النسل وبقاء النوع, فينتشر الزنا وتختلطا الأنساب وتضيع, بل إن الكثير من الرجال والنساء في الغرب قد لا يرتبطون بعلاقة زوجية قانونية, وإنما تكون العلاقة بينهما لتحقيق المتعة الآنية, لذلك تستمر العلاقة بينهما لفترة دون إنجاب الأولاد, ثم ينتقل كل منهما للبحث عن شخص آخر لقضاء هذه الشهوة البهيمية التي أصبحت غاية في حد ذاتها وليست وسيلة للتناسل وإنجاب الأولا والاستقرار النفسي.

وعندما ينحرف دافع التملك, ترى الإنسان يسعى لجمع المال وتكديسه, فبدلا من أن يكون وسيلة لتأمين الاحتياجات وقضاء الحوائج, يصبح غاية في ذاته, فيمتنع عن أداء الزكاة, ويقصر بحق أهله وأولاده, بل قد يبخل في حق نفسه ويحرمها خوفا من إنقاص هذا المال, فهذا المال قد أضحى سببا في تعاسة هذا الإنسان, فلا هو حقق الخير لنفسه ولا لمجتمعه, ويكون قد ابتعد عن الحكمة التي أرادها الله تعالى من تحصيل هذا المال.

وفي الحقيقة فإن هذه الانحرافات السلوكية الظاهرة تنبع عن انحرافات داخلية باطنة, فالسلوكيات المنحرفة ترجع في أصلها إلى خواطر وأفكار سلبية سيئة, تسمى عند علماء المسلمين (باطن الإثم) أو (أمراض القلوب) أو (أمراض النفوس). وقد جاء التحريم لهذه الانحرافات بكلا نوعيها الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.[47] قال مجاهد: " ظاهر الإثم ما يعمله بالجوارح من الذنوب، وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمُصرّ على الذنب القاصد له".[48] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.[49] قال مجاهد: " الطيف الغضب. ويسمى الجنون والغضب والوسوسة طيفاً، لأنه لمة من الشيطان تشبه بلمة الخيال".[50]

ولا يمكن لنا أن نفصل بين الانحراف الباطن والظاهر, لأن انحراف الأفكار سيؤدي لانحراف السلوك, كما أن الاعتياد على السلوك السلبي سيبرمج التفكير نحو التمادي والاستمرار في هذا الطريق.

وهذه الأمراض الباطنة لم يجد لها علم الطب النفسي تشخيصها بالمعيار الطبي, فلا يمكن إخضاعها لعمليات البحث التجريبي, بينما نجد علماء المسلمين قد كشفوا اللثام عنها وشخصوها وأظهروا آثارها وأضرارها, ثم بينوا وسائل وطرق علاجها, وذلك من خلال الوحي الإلهي والمتمثل الكتاب والسنة.

وكان الباعث الأول لهم على دراستها هو ما تحدثه من انحراف في السلوك مما يُعرّض المسلم للمساءلة والعقاب, هذا في الدرجة الأولى, ثم لما تُسببه من قلق وتوتر يعود بالضرر على الفرد والمجمع.

ونستطيع القول بأن التصور الإسلامي للسلوك قائم على أساس تزكية الدوافع السلوكية, وتغليب العقل الإيماني على الشهوة وذلك من خلال مبادئ ثلاثة:

المبدأ الأول: الإشباع بطريق مباح

---

[46] المرجع السابق, 111/4.
[47] سورة الأنعام: 120.
[48] البغوي, ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***, 182/3.
[49] سورة الأعراف: 201.
[50] القرطبي, أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ), ***الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي***, تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, دار الكتب المصرية – القاهرة, ط: 2. 350/7.

فدافع الجوع يمكن إشباعه بالكسب من المال الحلال, لذلك أباح لنا الإسلام الطيبات من الرزق وحرَّم علينا أكل أنواع معينة من المطعومات وكذلك المشروبات, وما حرمه سبحانه أقل بكثير مما أباحه لعباده, وإنما التحريم لما فيه من الضرر على صحة الإنسان بدَنيًا أو عقلياً, وقد أشار النبي ﷺ إلى أهمية الكسب الحلال.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.[51] وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.[52] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ ".[53]

هذا الحديث أحد الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ومباني الأحكام, وفيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهي عن الإنفاق من غيره, وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون مصدره مالا حلالاً خالصاً لا شبهة فيه.[54] فهذا الرجل يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة رحم وغير ذلك. ولكن كل ما يحمله من طعامه وشرابه ولباسه ونفقته هي من كسب خبيث, وقد غذي به. فقد أشبع دافع الجوع والعطش والملبس بطريق غير شرعي.

ونقل السيوطي قول القرطبي: " فَأنى يُسْتَجَاب لذَلِك. أَي كَيفَ على جِهَة الاستبعاد, وَمَعْنَاهُ أَنه لَيْسَ أهلا لإجابة دُعَائِهِ".[55]

وكذلك فإن إشباع دافع التملك يجب أن يكون بالحلال.

عَنْ خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ".[56] أَيْ رُبَّ مُتَصَرِّفٍ فِي مَالِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَرْضاه اللَّهُ سبحانه. والتَّخَوُّضُ: قِيلَ هُوَ التَّخْليط فِي تَحْصيله مِنْ غَيْرِ وجهه كيْف أمْكَن.[57]

وكذلك إشباع دافع الجنس, فلا بد أن يكون بطريق حلال, وعن طريق الزواج الشرعي وليس الزنا. عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ: " إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ ".[58]

قوله: (إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ) مِنَ الْإِقْبَالِ, شَبَّهَهَا بِالشَّيْطَانِ فِي صِفَةِ الْوَسْوَسَةِ وَالْإِضْلَالِ فَإِنَّ رُؤْيَتَهَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ دَاعِيَةٌ لِلْفَسَادِ. وقوله: (فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ) أَيْ يُضْعِفُهُ وَيُقَلِّلُهُ, مِنَ الضُّمُورِ وَهُوَ الْهُزَالُ وَالضَّعْفُ.[59] فقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من رأى إمرأة فتحركت به الشهوة, أن يأتي أهله ويقضي شهوته بالحلال, فإن ذلك يضعف ثوران هذا الدافع ويشبعه بطريق مباح.

وكذلك سائر الدوافع قد جعل الله لها طريقين لإروائها, طريق الحلال وطريق الحرام, طريق مشروع وطريق ممنوع, وهذا هو مظهر من مظاهر الابتلاء والامتحان, وللإنسان حرية الإختيار. قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.[60]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ".[61]

هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان, وهو من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله.[62] فهذا الرجل الذي استسلم لدافع الفرج والبطن والتملك, فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفِ عنه أصل الإيمان, وإنما نفى كماله وقوته, فالمسلم قوي الإيمان يقيه إيمانه من ارتكاب المعاصي, حتى يخرج من هذا الصراع قويا منتصرا.

المبدأ الثاني: اختيار الوقت المناسب

في بعض الأوقات قد يكون إشباع الدوافع محظورا, ففي فترة الصيام يحرم الطعام والشراب والجماع, كما يحرم إتيان المرأة حال حيضها ونفاسها, وكذلك حال الإحرام بالحج. ويأتي هنا دور العقل للسيطرة على زمام الأمور, وللوقوف أمام إلحاح الشهوات. ففي بعض الأوقات لابد من تأجيل إشباعها حتى يحين الوقت المناسب لإروائها.

---

[51] سورة المؤمنون:51.
[52] سورة البقرة: 172.
[53] مسلم, ***المسند الصحيح***,12 كتاب الزكاة, بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا, 2/703/ح 1015.
[54] النووي, أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ), ***المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج***, دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط:2, 1392هـ, عدد الأجزاء: 18 (في 9 مجلدات). 7/100.
[55] السيوطي, عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ), ***الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج***, تح: أبو اسحق الحويني الأثري, دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية – الخبر, ط:1, 1416 هـ - 1996م, عدد الأجزاء: 6. 3/89.
[56] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 57 كتاب فرض الخمس, بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال: 41], 4/85/ح 3118.
[57] ابن الأثير, مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ), ***النهاية في غريب الحديث والأثر***, تح: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي, , المكتبة العلمية, بيروت, ط: بلا ، 1399هـ - 1979م, عدد الأجزاء: 5. 2/88.
[58] أحمد, أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ), ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***, تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون, مؤسسة الرسالة, ط:1, 1421 هـ - 2001 م.407/22/ح 14537. وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.
أبو داود, سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ), ***سنن أبي داود***, تح: محمد محيي الدين عبد الحميد, المكتبة العصرية, صيدا – بيروت, عدد الأجزاء: 4. 12 كتاب النكاح, بَابُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنْ غَضِّ الْبَصَرِ, 2/246/ح 2151.
[59] العظيم آبادي, محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: 1329هـ), ***عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته***, دار الكتب العلمية - بيروت, ط:2, 1415 هـ, عدد الأجزاء: 14. 6/132.
[60] سورة البلد: 10.
[61] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 86 كتاب الحدود, بَابُ لاَ يَشْرَبُ الخَمْرُ, 8/157/ح 6772.
مسلم, ***المسند الصحيح***,1كتاب الإيمان, باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي, 1/76/ح 57.
[62] النووي, ***المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج***, 2/41.

المبدأ الثالث: التوازن في الإشباع من غير إسراف ولا تقتير

أباح الله تعالى لنا إشباع الدوافع بالطرق الشرعية, ولكن هذا الإشباع ليس على إطلاقه, فالطعام يسبب السمنة التي تولّد الأمراض والأضرار بالجسد وكذلك الإسراف في الشراب دون قيود يؤدي إلى تعاطي المحرمات, والإسراف في النوم له أضرار لما يورثه من الكسل وضياع الوقت والعمر, كما أن النوم لساعات طويلة ومتواصلة في الليل دون الاستيقاظ لصلاة الفجر له آثار طبية سلبية. وطغيان الشهوة ينشر الفواحش وضياع الأنساب, وطغيان حب التملك يؤدي إلى الجرائم وأكل أموال الناس بالباطل ... وكذلك سائر الدوافع, وقد أشار الله تعالى في كتابه إلى هذا المبدأ. قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.[63]

وجاءت كثير من الأحاديث الشريفة لتؤكد النهي عن الإسراف في إشباع الدوافع فقال النبي ﷺ: " كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ".[64]

وتأتي أهمية العقل هنا لإعطاء الغرائز حقها بالقدر المعقول, ومنعها من التمادي فيه, ذلك أن النفس تتلذذ بالشهوات وتريد استمرارها, أي أن النفس تبحث عن (الإشباع المطلق) دون حدود, وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: " لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ".[65]

أما العقل المُنوَّر بنور الإيمان فيبحث عن (الإشباع النسبي) أو المقيد بالضوابط والقواعد المرسومة من قِبَل الدين. وإذا فشل الإنسان في كبح جماح شهواته وضبط دوافعه الفطرية والتحكم بها انحرفت هذه الدوافع عن الأهداف الحقيقية والحِكم التي أرادها الله تعالى من وجودها, وتصبح هذه الدوافع بعد ذلك غاية في ذاتها وليست وسيلة لغايات سامية, وذلك بعد أن استحكمت بالإنسان وسيطرت عليه بدلاً من أن يتحكم بها ويسيطر عليها. وكما أن الإسراف يسبب الخلل, فكذلك الكبت والحرمان, والمطلوب هو التوسط والاعتدال.

ونستطيع القول بأن أي عملية إشباع للدوافع خارجة عن مبادئ التزكية الثلاث فإنها ستكون سببا في هلاك الإنسان وضياعه وشقاوته بدلا من أن تكون سببا في سعادته وراحته في الدارين.

المبحث الثالث: كبت الدوافع يسبب الانفعال والاضطراب في التفكير

لقد جاءت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ تتحدث عن الدوافع متفقة مع الفطرة الإنسانية, فهي تُقرها وتعترف بها بل تدعوا إلى إشباعها ضمن الحدود التي رسمتها الشريعة الحكيمة, دون تجاوز أو إسراف, ودون تفريط أو حرمان. فليس في الكتاب والسنَّة ما يشير إلى إنكار هذه الدوافع أوكبتها.

ويفرق علماء النفس بين قمع الدوافع وبين كبتها, فالقمع لايتضمن إنكار الرغبة واسقذارها, بل هو الكف الإرادي لدافع أو رغبة ما, ومقاومة إشباعها أو التعبير عنها في ظروف لا تسمح بإشباعها, حتى يحين الوقت المناسب.

أما كبت الدوافع فهو إنكار الرغبة واستقذارها أو الخوف منها ومحاولة إبعادها عن دائرة الوعي لما تسببه من شعور الفرد بالإثم والقلق, مما يؤدي إلى كبت هذه الرغبة في اللاشعور. فمفهوم الكبت يتضمن إبعاد الرغبة عن دائرة الوعي أو الشعور لتصبح مطمورة في أعماق اللاشعو, مما يسبب نشوء أعراض مختلفة من الانحرافات في السلوك.[66]

وليس في الإسلام ما يدعوا إلى كبت دوافع السلوك الفطرية, ولكن الدعوة إلى تنظيم إشباعها, والتحكم في توجيهها مع مراعات المصلحة الفردية والجماعية, فيكون العقل هو المتحكم والمسيطر على دوافعه, يوجهها التوجيه السليم, ولا يكون منقادا لها.

إن أي خلل في عملية إشباع الدافع سيكون لها أثر سلبي على الحالة النفسية والفكرية للفرد, فحينما يثار الدافع نتيجة حاجة الجسم لإشباع غريزة ما يصاحب ذلك حالة من التوتر والقلق وشعور بالضيق والكدر, فالجوع مثلا, يصحبه حالة نفسية مكدرة, وتغير بالمزاج والأخلاق والتفكير, لذلك أوصى النبي ﷺ الصائم فقال:" ... وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ".[67] فالمسلم ولو كان في حالة نفسية مضطربة بسبب الجوع فعليه أن يدرب نفسه على تحمل الأذى, وضبط أعصابه ومراقبة تصرفاته حال الصيام. لذلك نهى النبي ﷺ المسلم عن صوم الوصال, كما سن لنا تعجيل الفطور وتأخير السحور.

وأشار النبي ﷺ إلى هذه الحالة التي تصاحب الجوع, وذلك في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ ...".[68]

بينما نرى أنَّ في إشباع دافع الجوع والعطش يكون مصحوبا بحالة وجدانية من السرور والفرح, وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله:" لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ ".[69] فكبت الدوافع إنما هو تشدد سلبي مرفوض, والمطلوب هو التنظيم.

---

[63] سورة الأعراف: 31.
[64] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 77 كتاب اللباس, 140/7.
[65] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 81 كتاب الرقائق, بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ المَالِ, 92/8/ح 6436.
مسلم, ***المسند الصحيح***,12 كتاب الزكاة, بَابُ لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ لَابْتَغَى ثَالِثًا, 725/2/ح 1048.
[66] نجاتي, ***القرآن وعلم النفس***, ص 52-53.
[67] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 30 كتاب الصوم, بَابٌ هَلْ يَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ إِذَا شُتِمَ, /26/ح 1904.
13 مسلم, ***المسند الصحيح***,13كتاب الصيام, باب فَضْلِ الصِّيَامِ, 807/2/ح 1151.
[68]أبوداود, ***سنن أبي داود***, 8 كتاب تفريع أبواب الوتر, بَابٌ فِي الِاسْتِعَاذَةِ, 91/2/ح 1547.
النسائي, أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ), ***المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي***, تح: عبد الفتاح أبو غدة, مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب, ط:2, 1406 – 1986م, عدد الأجزاء: 9 (8 ومجلد للفهارس). 50 كتاب الاستعاذة, 263/8/ح 5468. وقال النووي, ***الأذكار***, ص 603/ح 1020: إسناده صحيح.
[69] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 30 كتاب الصوم, بَابٌ هَلْ يَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ إِذَا شُتِمَ, 26/3/ح 1904.
مسلم, ***المسند الصحيح***,13 كتاب الصيام, باب فَضْلِ الصِّيَامِ, 807/2/ح 111.

ويبين السيد قطب أن الذين يتحدثون في هذه الأيام عن «الكبت» وأضراره، وعن «العقد النفسية» التي يُنشئها الكبت والقمع، يقررون أن السبب الرئيسي للعُقد هو «الكبت» وليس هو «الضبط». والكبت هو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين:

الأول: ضغط من شعوره- الذي كوَّنه الإيحاء أو كوَّنه الدين أو كونه العرف- بأن دوافع الفطرة دوافع قذرة لا يجوز وجودها أصلاً، فهي خطيئة ودوافع شيطانية!

الثاني: ضغط هذه الدوافع التي لا تُغلب لأنها عميقة في الفطرة، ولأنها ذات وظيفة أصيلة في كيان الحياة البشرية لا تتم إلا بها، ولم يخلقها الله في الفطرة عبثاً, وعندئذ وفي ظل هذا الصراع تتكون «العقد النفسية».

ثم يتابع السيد قطب حديثه قائلاً:" فحتى إذا سلَّمنا جدلاً بصحة هذه النظريات النفسية، فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية. بين نوازع الشهوة واللذة، من جهة, وبين أشواق الارتفاع والتسامي من جهة ثانية, وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال".[70]

فدين الإسلام هو دين الوسطية, قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾.[71]

وهذا ما يميز دين الإسلام من بين الأديان الأخرى, فلا غلو ولا تقصير, ولا طغيان ولا إقتار, بل إنَّ منهجه قائم على القسطاس المستقيم, قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.[72] قال الراغب الأصفهاني في هذه الآية: " إشارة إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتحرّاه الإنسان من الأفعال والأقوال ".[73]

عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ دَخَلَتْ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ - أَحْسِبُ اسْمَهَا خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ- عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ بَاذَّةُ الْهَيْئَةِ فَسَأَلْتُهَا مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: زَوْجِي يَقُومُ اللَّيْلَ، وَيَصُومُ النَّهَارَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَتْ عَائِشَةُ ذَلِكَ لَهُ فَلَقِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ " إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، أَفَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ، فَوَاللهِ إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ".[74]

ويصحح الإمام الغزالي مفهوم المجاهدة للنفس ويوضح بأن تزكية الدوافع لا يعني كبتها والقضاء عليها, لأن ذلك يناقض الطبيعة البشرية التي فطر الله الناس عليها, فليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الشهوات بالكلية, وهيهات أن يكون ذلك فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام مثلا لهلك الإنسان, ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك, ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال وليس المطلوب إماطة هذه الدوافع ومحوها بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط.[75]

يقول السيد قطب: لا يترك الإسلام الإنسان لشهواته تستعبده وتجرفه بل يضبطها ويهذبها وينظفها... لكنه لا يكبتها, لأن الكبت منافٍ لفكرته ومنهجه في الحياة ... وفكرته ومنهجه هي احترام كل الطاقة مادامت تؤدي مهمتها التي فطره الله عليها, وفي ظل هذه الفكرة وهذا المنهج لا يوجد مجال للكبت ولا محاربة للطاقات, وكيف يكبتها ويحاربها وهو بحاجة إليها؟.[76]

وللإسلام توجيه عام يتعلق بهذه الدوافع الغريزية العضوية يمكن ذكرها في النقاط التالية:

1- تربية الأجيال على إشباعها بالآداب الإسلامية، لأن هذه الآداب هي التي تزين الإنسان وتميزه عن البهائم.

2-تبصير الأجيال بأهداف هذه الدوافع وتوجيههم إلى أساليب تحقيقها.

3-تكوين قدرة التحكم فيها حتى لا يكونوا أسرى لها أو عبيداً.

4- تكوين قدرة إقامة التنسيق والموازنة بينها حتى لا يكون صراع فيما بينها.

5- تحقيق العدالة والموازنة في إشباعها بإعطاء كل ذي حق حقه.[77]

المبحث الرابع: تزكية الدوافع بتوجيهها الإيجابي المتوازن

إن من حكمة الله تعالى في خلقه أن أودع في الإنسان غرائز فطرية تحفظ الذات كما تحفظ بقاء الجنس البشري, فيميل الإنسان لهذه الشهوات بفطرته وتطلبها النفس وتسعى لتحصيلها, قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾.[78]

يخبر سبحانه عمَّا زين للناس في حياتهم الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، أما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه ومندوب إليه، فقد وردت أحاديث كثيرة بالترغيب في الزواج والاستكثار منه. وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء، والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم. وتارة يكون المال سببا للنفقة في القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح شرعاً.

---

[70] قطب, سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385 هـ), ***في ظلال القرآن***, دار الشروق - بيروت- القاهرة, ط: 17, 1412 هـ. 374/1.

[71] سورة البقرة: 143.

[72] سورة الرحمن:9.

[73] الراغب الأصفهاني, ***المفردات في غريب القرآن***, ص 868.

[74] أحمد, ***المسند***, 25893 /70/43, قال الهيثمي, أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ), ***مجمع الزوائد ومنبع الفوائد***, تح: المحقق: حسام الدين القدسي, مكتبة القدسي، القاهرة,ط:بلا, 1414 هـ، 1994م, عدد الأجزاء: 1. , 301/4/ 7611: رجاله ثقات.

[75] الغزالي, ***إحياء علوم الدين***, 3/ 56 – 57.

[76] قطب، ***محمد, منهج التربية الإسلامية***، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط6، 1402هـ. ص111/1.

[77] يالجن،مقداد, ***التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية***، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: بلا, 1418هـ. ص83.

[78] سورة آل عمران:14.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام تارة يكون ربَطها أصحابها في سبيل الله تعالى, متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخرا فهذه على صاحبها وزر, وتارة للتعفف واقتناء نسلها، ولم ينس صاحبها حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر, وأما المسومة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخيل المسومة الراعية، والمطهمة الحسان, وقال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل وقيل غير ذلك. وقوله تعالى ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم، ﴿والحرث﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة. ثم قال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب.[79]

وقال فخر الدين الرازي: " وَاعْلَمْ أَنَّ لله تَعَالَى فِي إِيجَادِ حُبِّ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ حِكْمَةً بَالِغَةً، فَإِنَّهُ لَوْلَا هَذَا الْحُبُّ لَمَا حَصَلَ التَّوَالُدُ وَالتَّنَاسُلُ وَلَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّسْلِ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ كَأَنَّهَا حَالَةٌ غَرِيزِيَّةٌ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهَا حَاصِلَةٌ لِجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ بَقَاءِ النَّسْلِ ".[80]

ويقول سيد قطب في تفسيره بأن في الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو, فهي شهوات مستحبة مستلذة وليست مستقذرة ولا كريهة. والتعبير في الآية لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكانها بحيث لا تتعداه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى. والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية, وقد قرن إليهما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة, ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال: والأموال, أو والذهب والفضة. ولكن القناطير المقنطرة تُلقي ظلاً خاصاً هو المقصود, ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة. ذلك أن التكديس ذاته هو شهوة, بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى, ثم قرن الخيل المسومة وقرن إلى تلك الشهوات الأنعام والحرث, وهذه الشهوات التي ذُكرت هنا هي نموذج لشهوات النفوس.[81]

وليس المطلوب أن يحرم الإنسان نفسه من هذه الشهوات ولكنَّ إشباع هذه الدوافع لا بُدَّ له من ميزان قويم يحفظ للإنسان التوازن من غير انحراف, لأن هذه الشهوات إن استحكمت بالإنسان خرجت عن الفطرة السليمة لتصبح نزعات شهوانية سلبية تودي بصاحبها إلى الهلاك والشقاء في الدنيا قبل الآخرة. وإن تم تجاهلها واستقذارها ومحاربتها أدى ذلك لكبتها, وفي كلا الأمرين تطرف وانحراف عن ميزان الاعتدال الذي رسمه منهج الإسلام.

فهذه الشهوات إن كان لها توجيه بمنهج رباني كانت لونا من ألوان العبادة وسببا من أسباب القرب من الله سبحانه, كما قال ﷺ: " وفي بضع أحدكم صدقة ".[82]

وإلى جانب هذه الحاجات والدوافع البدنية هناك الحاجات والدوافع النفسية والروحية, فهي ضرورية لتحقيق الأمن النفسي والشعور بالسعادة والطمأنينة, فالإنسان بقرارة نفسه يشعر بحاجة إلى إله يؤمن به ويعبده كحاجته للطعام والشراب, كما أنه بحاجة إلى الإنتماء للمجتمع فهو اجتماعي بطبعه ولا يستطيع أن يعيش بمنعزل عن المجتمع. إذاً المطلوب إنما هو منهج الاعتدال في إشباع الروح والجسد, وهذا ما تتصف به شريعتنا الإسلامية المتمثلة بالكتاب والسنة.

وذلك لأن إغفال بعض الدوافع وكبتها سيؤدي إلى حالة من الاضطراب والخلل, والإضرار بصحة الإنسان النفسية والجسدية. فعندما ينكبُّ الإنسان على إشباع دوافعه الجسدية, ويحقق ملذاته وشهواته الدنيوية, ويُغفل إشباع احتياجاته الروحية, فإنه لن ينعم بالسعادة والأمن والطمئنينة, قال الله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾.[83] قال ابن كثير في تفسيره:" فإن له معيشة ضنكا أي ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد, فهذا من ضنك المعيشة. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس, فإن له معيشة ضنكا قال: الشقاء ".[84]

فلا يزال الإنسان يشقى من الداخل, وإن كان يتنعم ويتلذذ بمُتع الدنيا من حيث الظاهر. وكذلك فإن الإنسان الذي يتشدد في دينه, فيُشبع دوافعه الروحية, ويهمل حاجاته البدنية, فإنه لا يعتبر شخصا متوازنا سويا, ولا يتمتع بالصحة البدنية والنفسية, لأن عدم إعطاء الجسم حقه سيجعل حياته غير منسجمة مع الفطرة التي فطره الله تعالى عليها.

والحل الأمثل إنما هو التوازن بين الروح والجسد, وذلك بإشباع الدوافع البدنية في الحدود الشرعية, وفي الوقت نفسه يقوم الإنسان بإشباع دوافعه الروحية بأداء العبادات والطاعات تقربا من الله تعالى.

وينبه الإمام الغزالي إلى أهمية التوازن والاعتدال من غير كبح ولا شطط فيقول:" الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض ... وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء, فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ".[85]

وقد أمرنا الله تعالى بهذا التوازن في قوله سبحانه: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.[86] أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات والطاعات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فآت كل ذي حق حقه.[87]

---

[79] ابن كثير, ***تفسير القرآن العظيم***, 2/15- 18 .

[80] الرازي, أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ), ***مفاتيح الغيب = التفسير الكبير***, دار إحياء التراث العربي- بيروت, ط3, 1420 ه . 7 /162.

[81] قطب, ***في ظلال القرآن***, 1/373- 374.

[82] مسلم, ***المسند الصحيح***,16كتاب الزكاة, بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ, 2/697/ح1006.

[83] سورة طه: 124.

[84] ابن كثير, ***تفسير القرآن العظيم***, 5/ 283.

[85] الغزالي, ***إحياء علوم الدين***, 3/61.

[86] سورة القصص: 77.

[87] ابن كثير, ***تفسير القرآن الكريم***, 6/226.

ونجد أن القرآن الكريم في كثير من الآيات يدعو المسلم بأن يتمسك بمنهج الموازنة بين الروح والجسد لأن في ذلك خلاصا من الصراع النفسي الذي يصيب الإنسان فيحرمه نعمة الطمئنينة والسعادة, ويكون سببا للخسارة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.[88] ولما ذكر الله تعالى في سورة آل عمران بعض الدوافع الدنيوية التي ينشغل الإنسان وينهمك في إشباعها نجد أنه سبحانه بعد أن عددها التفتت الآية مباشرة إلى توجيه المسلم إلى تقوى الله تعالى وتحذيره من الإنغماس في بحر الشهوات.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾.[89]

وقال تعالى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾.[90]

ونجد أن القرآن الكريم يحث المسلم بأن يُعمل عقله فيتفكر في مآل هذه المُتع العاجلة وأنها للزوال القريب, فهي أشبه ما تكون بالنَّبات الأخضر الذي سرعان ما تعصف به الرياح فيذبل ويبيس.

قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.[91]

كما نرى أن النبي ﷺ رسم منهجا واضحا للموازنة بين الروح والجسد, وكان ﷺ نموذجا للشخصية السوية المتوازنة, فكان أتقى العباد وأشدهم خشية, ومع ذلك كان يصوم ويفطر, ويصلي وينام, ويتزوج النساء.

وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟"، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "فَلاَ تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ "، فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ: " فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَلاَ تَزِدْ عَلَيْهِ "، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ؟ قَالَ: " نِصْفَ الدَّهْرِ"، فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[92] ندم هذا الصحابي الجليل, لأنه عندما كبرت به السن وضعف الجسم, أدرك أن منهج التوازن الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته فيه كل الخير والإعتدال.

وكان ﷺ يحب النساء ولكن حبه لهن لم يمنعه من أن تكون الصلاة هي قرة عينه, فكان يؤدي للجسد حقه من غير أن ينشغل قلبه عن ربه سبحانه.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ".[93]

وعن أَبِي جُحَيْفَةَ، قَالَ: آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " صَدَقَ سَلْمَانُ ".[94]

ولقد نهى النبي ﷺ عن التشدد في الدين, والمغالاة في العبادة, فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ ".[95]

وفي حديث آخر:".. سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا ".[96]

سددوا معناه اقصدوا السداد أي الصواب, والمراد بالغدو السير من أول النهار وبالرواح السير من أول النصف الثاني من النهار, والدلجة يقال سار دلجة من الليل أي ساعة , فلذلك قال شيئا من الدلجة لعسر سير جميع الليل ,وفيه إشارة إلى الحث على الرفق في العبادة, والقصد القصد بالنصب على الإغراء أي الزموا الطريق الوسط المعتدل.[97]

---

[88] سورة المنافقون: 9

[89] سورة آل عمران: 14.

[90] سورة المائدة: 25.

[91] سورة الحديد: 20.

[92] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 30 كِتَابُ الصَّوْمِ, بَابُ حَقِّ الجِسْمِ فِي الصَّوْمِ, 39/3/ح 1975.
مسلم, ***المسند الصحيح***,13 كِتَاب الصِّيَامِ, بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ لِمَنْ تَضَرَّرَ بِهِ.., 817/22/ح 1159.

[93] أحمد, ***المسند***, 305/19/ح 12293.
النسائي, ***سنن النسائي***, 36 كتاب عشرة النساء, باب حب النساء, 61/7/ح 3939.
الحاكم, أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ), ***المستدرك على الصحيحين***, تح: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت, ط:1, 1411هـ – 1990م, عدد الأجزاء: 4. 174/2/ح 2676, وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ, ووافقه الذهبي.
قال العراقي, أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806هـ), ***المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار*** (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين), دار ابن حزم، بيروت – لبنان, ط: 1، 1426 هـ - 2005 م,عدد الأجزاء: 1.ص 466: إسْنَاده جيد.

[94] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 30 كتاب الصوم, بَابُ مَنْ أَقْسَمَ عَلَى أَخِيهِ لِيُفْطِرَ فِي التَّطَوُّعِ.., 38/3/ح 1968.

[95] المرجع السابق, 2 كتاب الإيمان, 16/1/ح 39.

[96] المرجع السابق, 81 كتاب الرقاق, بَابُ القَصْدِ وَالمُدَاوَمَةِ عَلَى العَمَلِ, 98/8/ح 6463.

[97] ابن حجر, أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(المتوفى: 852هـ), ***فتح الباري شرح صحيح البخاري***, رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي, قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب, ط:بلا, دار المعرفة- بيروت, ط: بلا, 1379هـ , عدد الأجزاء: 13.
298/11.

والتربية الإسلامية تقوم على التوازن الدقيق بين منافع الجسد ومطالب الروح، ويعتمد بناء الشخصية الإسلامية أساساً على مدى التوازن بين القوى والاستعدادات الإنسانية، المادية والمعنوية، والفطرية المكتسبة، وكل خلل يلحق بها أو ينقصها يؤثر تأثيراً سلبياً في تشكيل الشخصية المتكاملة، ويسبب لها الاضطراب والاهتزاز، وعدم الاستقرار والثبات، وهو ما يجعلها غير قادرة على التكيف مع مشاكل الحياة، وغير مستعدة لتحمل المصاعب والعقبات، وغير مؤهلة لمجابهة المتاعب والأزمات، التي تكتنف ظروف الكائن البشري من مهده إلى لحده، وهو ما يؤدي بالتالي إلى أن تكون الشخصية سلبية هروبية، لا نفع يرجى منها للفرد أو الجماعة أو تكون شخصية عدوانية مدمرة تُلحق بالفرد والجماعة أشد الضرر.[98]

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: " إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا".[99]وللحديث فوائد كثيرة عدها الحافظ ابن حجر ومنها :

- أن العبد إذا بلغ الغاية في العبادة وثمراتها كان ذلك أدعى له إلى المواظبة عليها استبقاء للنعمة واستزادة لها بالشكر عليها.

- الوقوف عند ما حدَّ الشارع من عزيمة ورخصة, واعتقاد أن الأخذ بالأرفق الموافق للشرع أولى من الأشق المخالف له.

- أن الأولى في العبادة القصد والملازمة لا المبالغة المفضية إلى الترك كما جاء في الحديث الآخر المُنبت, أي المُجد في السير لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.[100]

ويذهب الإمام الغزالي إلى أن أسماء النفس تختلف باختلاف الأحوال العارضة لها, فقد تتشبه بالملائكة, وقد تتشبه بالبهائم:

فَإِن اتجهت إِلَى الصَّوَاب وَنزلت عَلَيْهَا السكينات الآلهية فتطمئن إِلَى ذكر الله عز وَجل وتسكن إِلَى المعارف الإلهية وَتَطير إِلَى أَعلَى أفق الملكية فَيُقَال نفس مطمئنة. وان كَانَت مَعَ قواها, وجنودها فِي حرب وشجار ونزاع وَكَانَت الْحَرْب بَينهمَا سجالا فَتَارَة لَهَا الْيَد عَلَيْهَا وَتارَة للقوى عَلَيْهَا الْيَد فَلَا تكون حَالهَا مُسْتَقِيمَة فَتَارَة تنْزع إِلَى جَانب الْعُقُول وَتثبت على الطَّاعَات, وَتارَة تستولي عَلَيْهَا القوى فتهبط إِلَى حضيض منَازِل الْبَهَائِم فَهَذِهِ النَّفس نفس لوامة, وَهَذِه النَّفس هِيَ حَالَة أَكثر الْخلق فَإِن من ارْتَفع إِلَى أفق الْمَلَائِكَة حَتَّى تحلى بالعلوم والفضائل النفسية والأعمال الْحَسَنَة فَهُوَ ملك جسماني لارتفاعه عَن الإنسانية وَعدم مشاركته للبشر إِلَّا بالصورة التخطيطية. وَمن اتضع ونزل حَتَّى صَار فِي حضيض الْبَهَائِم فَلَو تصور كلب أَو حمَار منتصب الْقَامَة مُتَكَلم لَكَانَ هُوَ إياه, لانسلاخه عَن الْفَضَائِل الانسانية وَعدم مشاركته للإنسان إِلَّا بالصورة التخطيطية وَهَذِه هِيَ النَّفس الأمارة بالسوء.[101]

فنجد أن الإمام الغزالي قد جعل خصائص نفس الإنسان بين طرفي نقيض, الحيوانية بما تحمله هذه الكلمة من الغرائز والمطالب الجسدية من جهة, وبين الملائكية بما تحمله من الروحانية والطاعة لله تعالى والترفع عن الغرائز والشهوات من جهة أخرى.

أما الإنسان فإنه مأمور بالسعي للتوفيق بين مطالب الروح والجسد, فليس المطلوب منه أن يكون ملكاً منزهاً عن الغرائز الفطرية, ولا أن ينزل إلى مستوى البهائم في الانقياد وراء الرذائل والرعونات, وإنما المطلوب هو التوازن والتوفيق, وتحقيق الاعتدال.

إن التحكم بالغرائز, والإعتدال في تلبيتها هو وسيلة الصحة النفسية, والتحكم بالنفس لتنقاد بالعقل الواعي, وإلا فقدَ الإنسان السيطرة وأصبح يتصرف بغير إرادة ولاوعي, فيقع في المرض النفسي الذي يتحدث عنه علم النفس الحديث.

فيكون الإمام الغزالي له فضل السبق في هذا التشخيص الدقيق, والتفريق حيث قال: "من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد..."[102]

الخاتمة:

بعد إتمام البحث بفضل الله تعالى وتوفيقه تتلخص لنا مجموعة من النتائج والتوصيات وهي كما يلي:

1- إن سلوك الإنسان هو سلوك مدفوع فليس من عمل إلا ومن ورائه دوافع, لذلك كانت دراسة دوافع السلوك الإنساني هي من أهم موضوعات علم النفس الحديث وأكثرها عناية, إذ لا مجال لفهم سلوك الإنسان وتفسيره والقدرة على تعديله وتغييره إلا من خلال دراسة الدوافع التي تحركه.

2- استعمل علماء النفس الحديث مصطلح الغرائز و الدوافع بمعنى واحد, وقد عَدَل علماء النفس عن مصطلح الغرائز ورفضوه واستبدلوه بلفظ (الدوافع) وذلك في العشرينات من هذا القرن.

3- يُطلق على الدافع في المصادر الإسلامية لفظ: الفطرة, والشهوة, كما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة, وعبَّر عنها العلماء بألفاظ مرادفة كاللذات والدواعي والجِبِلَّة والغريزة, ويطلق على التحريض والوازع والترغيب والترهيب كما في القرآن الكريم. غير أن مصطلح غريزة هو السائد في كتب علماء المسلمين المتأخرين كالإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

4- اقتضت مشيئة الله تعالى إيجاد دوافع فطرية في الإنسان, وهي دوافع إيجابية من حيث المبدأ, ولكن عندما تنحرف هذه الدوافع عن مسراها الصحيح يصبح هدفها تحقيق اللذة والمتعة الجسدية, أي يصبح الدافع غاية في ذاته وليس وسيلة لحفظ الذات والنوع.

5- نستطيع القول بأن التصور الإسلامي للسلوك قائم على أساس تزكية الدوافع السلوكية, وتغليب العقل الإيماني على الشهوة وذلك من خلال مبادئ ثلاثة:

المبدأ الأول: الإشباع بطريق مباح

---

[98] الزنتاني, عبدالحميد ، ***أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية***، الدار العربية للكتاب، ليبيان تونس، ط: بلا, 1984م. ص843.

[99] البخاري, ***الجامع الصحيح***, 2 كتاب الإيمان, بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ "..., 13/1/ح 20.

[100] ابن حجر, ***فتح الباري شرح صحيح البخاري***, 71/1.

[101] الغزالي, أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ), ***معارج القدس في مدارج معرفة النفس***, دار الآفاق الجديدة – بيروت, ط: 2, ص 15-16.

[102] المرجع السابق, 66/3.

المبدأ الثاني: اختيار الوقت المناسب

المبدأ الثالث: التوازن في الإشباع من غير إسراف ولا تقتير

6- يفرق علماء النفس بين قمع الدوافع وبين كبتها, فالقمع لايتضمن إنكار الرغبة واسقذارها, بل هو الكف الإرادي لدافع أو رغبة ما, ومقاومة إشباعها أو التعبير عنها في ظروف لا تسمح بإشباعها, حتى يحين الوقت المناسب لإشباعها في ظروف مسموح بها وبمقدار متوازن. أما كبت الدوافع فهو إنكار الرغبة واستقذارها أو الخوف منها ومحاولة إبعادها عن دائرة الوعي لما تسببه من شعور الفرد بالإثم والقلق, مما يؤدي إلى كبت هذه الرغبة في اللاشعور. وليس في الإسلام ما يدعوا إلى كبت دوافع السلوك الفطرية, ولكن الدعوة إلى تنظيم إشباعها, والتحكم في توجيهها مع مراعات المصلحة الفردية والجماعية, فيكون العقل هو المتحكم والمسيطر على دوافعه, يوجهها التوجيه السليم, ولا يكون منقادا لها.

7- يوصي الباحث بتكثيف البحوث العلمية من قِبل الباحثين والمؤسسات البحثية المهتمة بالدراسات النفسية بربطها بالمسائل والمواضيع العَقَديَّة للدين الإسلامي, وذلك من خلال البحث في الكتاب والسنة.

8- كما يوصي الباحث بتأصيل الدراسات والأمراض النفسية تأصيلاً إسلامياً, من حيث تشخيصها وبيان أسبابها وآثارها, ووسائل الوقاية والعلاج منها. وسيجد الباحث في كتب علماء المسلمين - كالإمام الغزالي رحمه الله تعالى- ما يثري بحثه بالتأصيل, وهذا ما يمكن أن نُعبِّر عنه بمصطلح (علم النفس الإسلامي).

فهرس المصادر والمراجع

1. ابن الأثير, مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ), ***النهاية في غريب الحديث والأثر***, تح: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي, , المكتبة العلمية, بيروت, ط: بلا ، 1399هـ - 1979م, عدد الأجزاء: 5.
2. ابن القيم, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ), ***الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء***, دار المعرفة - المغرب، ط: بلا, 1418هـ - 1997م, عدد الأجزاء: 1.
3. ابن حجر, أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(المتوفى: 852هـ), ***فتح الباري شرح صحيح البخاري***, رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي, قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب, ط:بلا, دار المعرفة- بيروت، ط: بلا, 1379هـ , عدد الأجزاء: 13.
4. ابن دريد, أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ), ***جمهرة اللغة***, تح: رمزي منير بعلبكي, دار العلم للملايين – بيروت, ط:1, 1987م.
5. ابن كثير, أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ), ***تفسير القرآن العظيم***, تح: محمد حسين شمس الدين, دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت, ط: 1, 1419 هـ .
6. ابن منظور, : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ), ***لسان العرب***, دار صادر- بيروت, ط3, 1414 ه,- عدد الأجزاء: 1.
7. أبو بكر الرازي, زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ), ***مختار الصحاح***, تح: يوسف الشيخ محمد, المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا, ط:5, 1420, هـ - 1999م, عدد الأجزاء: 1
8. أبو داود, سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ), ***سنن أبي داود***, تح: محمد محيي الدين عبد الحميد, المكتبة العصرية، صيدا – بيروت, عدد الأجزاء: 4.
9. أحمد, أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ), ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***, تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون, مؤسسة الرسالة, ط:1, 1421 هـ - 2001 م.
10. البخاري, محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (المتوفى:256هـ), ***الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري***, تح: محمد زهير بن ناصر الناصر, دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1, 1422هـ. عدد الأجزاء: 9.
11. البغوي, محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ), ***معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي***, حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش, دار طيبة للنشر والتوزيع, ط: 4، 1417 هـ - 1997 م, عدد الأجزاء: 8.
12. البغوي, محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ), ***معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي***, حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش, دار طيبة للنشر والتوزيع, ط: 4، 1417 هـ - 1997 م, عدد الأجزاء: 8.
13. الجاحظ,عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ), ***الحيوان***, دار الكتب العلمية – بيروت, ط:2, 1424ه,عدد الأجزاء: 7.
14. الحاكم, أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ), ***المستدرك على الصحيحين***, تح: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت, ط:1, 1411هـ – 1990م, عدد الأجزاء: 4.

15. راجح, أحمد عزت, ***أصول علم النفس***, دار الكتاب العربي للطباعة والنشر, القاهرة, ط: 7, 1968م. ص 85.

16. الرازي, أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ), ***مفاتيح الغيب = التفسير الكبير***, دار إحياء التراث العربي- بيروت, ط3, 1420 هـ.

17. الراغب الأصفهاني, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ), ***المفردات في غريب القرآن***, تح: صفوان عدنان الداودي, دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت, ط:1, 1412 هـ..

18. زهران, حامد زهران, ***الصحة النفسية والعلاج النفسي***, عالم الكتب, القاهرة, ط4, 1426-2005 م.

19. الزيد, عبد الرحمن, ***الهدي الإسلامي للغرائز عند الإنسان***, جامعة أم القرى, مكة المكرمة, 1417ه.

20. السيوطي, عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ), ***الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج***, تح: أبو اسحق الحويني الأثري, دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية – الخبر, ط:1, 1416 هـ - 1996م, عدد الأجزاء: 6.

21. صالح, أحمد زكي صالح، ***علم النفس التربوي***، دار المعارف، مصر, ط14، 1988م.

22. طه, فرج عبد القادر, ***موسوعة علم النفس والتحليل النفسي***, دار غريب,ط2, 2003م.

23. عبدالرحمن النحلاوي، ***الغرائز والدوافع تنظيمها وتأثيرها في الحياة النفسية***، محاضرات الموسم الثقافي العاشر للكليات والمعاهد العلمية.

24. عدس, عبدالرحمن- توق, محي الدين, قطامي, يوسف, ***أسس علم النفس التربوي***, دار الفكر للطباعة والنشر, ط: 3, 1424 هـ - 2003م.

25. العراقي, أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806هـ), ***المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار*** (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين), دار ابن حزم، بيروت – لبنان, ط: 1، 1426 هـ - 2005 م,عدد الأجزاء: 1.

26. العراقي, أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806هـ), ***المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار*** (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين), دار ابن حزم، بيروت – لبنان, ط: 1، 1426 هـ - 2005 م,عدد الأجزاء: 1.

27. العظيم آبادي, محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: 1329هـ), ***عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته***, دار الكتب العلمية - بيروت, ط:2, 1415 هـ, عدد الأجزاء: 14.

28. الغزالي, أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ), ***معارج القدس في مدراج معرفة النفس***, دار الآفاق الجديدة – بيروت, ط: 2.

29. القرطبي, أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ), ***الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي***, تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, دار الكتب المصرية – القاهرة, ط: 2.

30. قطب, سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385 هـ), ***في ظلال القرآن***, دار الشروق - بيروت- القاهرة, ط: 17, 1412 هـ..

31. قطب، ***محمد, منهج التربية الإسلامية***، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط6، 1402هـ.

32. محمد أحمد جاد المولى، ***الخلق الكامل***، مصر, مطبعة حجازي, ط: بلا.

33. مسلم, مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ), ***المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ***, تح: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط:1, 1412هـ-1991م.

34. نجاتي, محمد عثمان, ***القرآن وعلم النفس***, دار الشروق, القاهرة, ط7, 1421, 2001م.

35. النسائي, أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ), ***المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي***, تح: عبد الفتاح أبو غدة, مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب, ط:2, 1406 – 1986م, عدد الأجزاء: 9 (8 ومجلد للفهارس).

36. النغيمشي, عبد العزيز, ***علم النفس الدعوي***, دار المسلم للنشر والتوزيع, الرياض, ط: بلا, 1415ه.

37. النووي, أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ), ***المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج***, دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط:2, 1392هـ, عدد الأجزاء: 18 (في 9 مجلدات).

38. الهيثمي, أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ), ***مجمع الزوائد ومنبع الفوائد***, تح: المحقق: حسام الدين القدسي, مكتبة القدسي، القاهرة,ط:بلا, 1414 هـ، 1994م, عدد الأجزاء: 1.

39. يالجن،مقداد, ***التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية***، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: بلا, 1418هـ..